ثنائية الشك واليقين في المنهج الفلسفي

د. آسيا واعر(*)

ملخص الدراسة

المنهج أو المنهاج هو الطريق الواضح، والسلوك البين، والسبيل المستقيم، الذي اعتمده الفكر الفلسفي وهو يبحث إما في ذاته أو في هذا العالم الخارجي الذي يحويه، والمفعم بالقضايا والإشكالات في شتى المجالات والميادين الإنسانية والاجتماعية والثقافية؛ فكان هم العقل الإنساني في إدراك الحقائق العلمية والوصول إلى اليقين المعرفي، حقائق تأرجحت بين الإثبات والنفي، فهناك من هدم هذه الحقائق ولم يعترف بوجودها، وهناك من قال وأيقن وجودها وبين هذا وذاك راحت عقول أخرى تمسك بالحقيقة وتقبض عليها من منطلق الشك بها، ليختزل الفكر الفلسفي منذ نشأته إلى يومنا هذا في مواقف ثلاث: موقف لا يقول بوجود حقائق معرفية ويعتمد الشك مذهبا ليطيح بأي يقين معرفي، وموقف آخر يوقن بها ويبرهن على وجودها بحجج وبراهين عقلية مؤسسا لمبادئ وخطوات توصل إليها، وموقف آخر انطلق من الشك ليخرج من رحمه اليقين المعرفي، بعد حالات ومعاناة من الشك دامت أزمنة طويلة.

مقدمة

منذ أن بدأنا نتعلم أبجديات الفكر الفلسفي ونحن نعرّف الفلسفة بما عرفها «**فيثاغورس**» على أنها «محبة الحكمة»، والحكمة هي إصابة الحق في القول والعمل.

ولقد دأب العقل الإنساني منذ أن وطأت رجلا ذواته سطح المعمورة على إعمال العقل وعلى

(*) جامعة عنابة - الجزائر.

البحث والتنقيب في ملكوت السماوات والأرض، فبحث في ذاته، وفي كينونته، كما بحث في وجوده، وفي العالم الخارجي وفي كل ما يحيط به و يتعايش و يتفاعل معه.

و لعلّ البحث الفعال لا يكون إلاّ بالاعتماد على منهج معين، لذا تعددت المناهج في الفكر الفلسفي، تعدد يمكن أن نقول عنه أنه يتوحد في الهدف والغاية والمتمثلة في إدراك الحقائق المعرفية وبلوغ اليقينيات الكبرى فيها، مناهج متعددة يمكن أن نختزلها في نقاط ثلاث، هي:

- **الشـك**: وهو المنهج الذي يشك في وجود حقائق قائمة بذاتها.
- **اليقين**: يعترف بوجود هذه الحقائق، و يعمل على ضبط آليات الوصول إليها.
- **من الشك إلى اليقين**: ينطلق من الشك و يفقد الثقة في وجود أي حقيقة أو يقين معرفي ليستخرج بعدها النهج الأنسب واللازم حتى يلغ درجة من اليقين يطمئن إليه قلبه وعقله.

خطوات ثلاث نرى أنها كفيلة بأن نحصر فيها كل ما حواه الفكر الفلسفي منذ أزمنته القديمة إلى وقتنا هذا. الأمر الذي دعانا إلى تحليل النقاط التالية:

الشك كمنهج للفكر الفلسفي

الشك كما ورد في المعجم الفلسفي «**لجميل صليبا**» هو «التردد بين نقيضين لا يرجح العقل أحدهما على الآخر، وذلك لوجود أمارات متساو ية في الحكمين، أو لعدم وجود أية أمارة فيهما، و يرجع تردد العقل بين الحكمين إلى عجزه عن معاناة التحليل أو إلى قناعته بالجهل»(١).

وكان هذا من أهم السمات التي تميز بها الفكر الفلسفي، وهو يبحث في الوجود الذاتي والوجود الخارجي، ويمكن تقدير ذلك زمانيا بفترة ما قبل الميلاد، حيث ظهرت حركة الشكوكية التي تدع العقل إلى الشك في كل ما لا يتحققه الإنسان بالتجربة، وكان **بيرو Pyrro (٢٧٥ق.م)** من أشهر المتشككين، تبعاه في ذلك كل من **تيمون Timon** و**كرنيادس Carneades** اللّذان اعتمدا مذهبا فحواه «أننا و إن كنا نعرف ظواهر الأشياء، فلا نستطيع أن نعرف حقيقتها الباطنية، ولما كان الشيء الواحد يظهر بمظاهر مختلفة لعدد من الأشخاص، فإنه من المتعذر

(١) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيوت، ١٩٨٢م، ج١، ص ٧٠٥/ محمد الشريف الجرجاني، **التعريفات**، طبعة جديدة، مكتبة لبنان، لبنان، ١٩٨٥م، ص ١٣٤

أن نعرف الصواب في وجهات النظر، ولما كنا لا نستطيع التأكد من طبيعة الشيء ولا إصدار الحكم الصائب عليه، فإن الأمر يقتضي الوقف والامتناع عن أي عمل ومن ثم على المرء أن يعيش في هدوء وطمأنينة، متحررا من كل وهم أو ضلال، ويمتنع عن الرغبات، حتى يتحرر من الشقاء»[١]

إنّ حركة الشك التي مرّ بها الفكر الفلسفي يمكن أن نقول عنها أنها كانت إما مذهبا أومنهجا، ولابد وأن نفرق بينهما، فالمذهب ينطلق من الشك ليعود إليه، إنها مبادئ ومسلمات يعتنقها العقل وينطلق منها ويفسر بموجبها جميع الظواهر العلمية والمعرفية، فكان من بين أبرز المذاهب في هذا المجال «مذهب اللا أدرية» الذي يشك في كل شيء ولا يسلم بوجود حقيقة، و«المذهب الارتيابي» الذي يشك في إمكان الوصول إلى الحقيقة وقدرة الإنسان على معرفتها، ويمسك عن إبداء رأيه فلا يسلم بهذا ولا بذاك»[٢].

أما المنهج فهو ينطلق من نقطة أو من موقف ليصل إلى نقطة مغايرة تماما لما انطلق منه، لأنه اعتمد رؤية لا من زاوية المبدأ الدغمائي ولكن من زاوية البحث عن الحقائق واليقين المعرفي، فإما أن يجد ضالته أو يستمر في البحث عنها [٣]

كلمة الشك اعتمدها العقل الإنساني منذ بدايات تأمله وتدبره في تلقي الحقائق أو في الوصول إليها، شك طال جميع الميادين العلمية والمعرفية وقد لخص لنا «**جينيفر مايكل هيكت**» هذه الحركة منذ أول نشأتها كما نوه عن أهم المحطات والميادين التي سادها[٤]، ولعلّ أهم ما يشد دراستنا هذه إنما حركة الشك التي تخللت الفكر الفلسفي، والتي غالبا ما نرجع بدايتها إلى ما كان في الفكر اليوناني والذي كان مفهومه في ما يراه «**محمود حمدي زقزوق**»[٥] يختلف اختلافا تاما عن المعنى الذي نفهمه منه اليوم، إذ كانت الكلمة اليونانية (اسكبتستاي) Skeptesthai التي اشتق منها مفهوم الشك تعني الفحص بعناية أو البحث أو التنقيب، الأمر

(١) مصطفى حسيبة، **المعجم الفلسفي**، ط١، دار أسامة، الأردن، ٢٠٠٩م، ص ٢٧٥.

(٢) حنا أسعد فهمي، **تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن** ط١، المطبعة اليوسفية، مصر، ١٩٢١م، ص٤.

(٣) هذا ما سنراه لا حقا في عنصر من الشك إلى اليقين ص....

(٤) انظر تفصيل هذا في جينيفر مايكل هيكت، **تاريخ الشك**، تر: عماد شيحة، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤م.

(٥) محمود حمدي زقزوق، **تمهيد للفلسفة**، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٢٣.

الذي يمكن اعتباره مبدأ أو قاعدة لكل تفلسف جاد، لتتغير الدلالة على مر العصور وأصبحت كلمة الشاك تعني ذلك الإنسان الذي يتخذ موقفا معرفيا معينا، وهو موقف يتمثل على وجه التحديد في إنكار المعرفة.

وبهذا لم تعد دلالة الشاك تعني ذلك الباحث الذي يتخذ موقفا نقديا غير مثقل بأحكام سابقة، وإنما أصبح يعني - على خلاف ذلك - أنه أحد المفكرين الذين ينكرون إمكان المعرفة سواء كان هذا الإنكار جزئيا أو كليا شاملا لكل المعارف[(١)].

ومهما يكن من أمر فإنّ التيار التشكيكي قد أرجع إلى «**بيرون**» وتلميذه «**تيمون**»، تيار مفاده استبعاد مهام التأمل المعرفي الطالب للحقيقة من النظر الفلسفي، هذا الأخير الذي يعنى بفن الحياة فحسب، لذا شككا في بلوغ الحقيقة كما شككا في آلياتها والمتمثلة في العقل والحواس، «فانعدم بذلك الشرط الابستمولوجي للمعرفة، ووجب حسب رأيهم تعليق الحكم»[(٢)].

وإذا ما تأملنا نفي الاتجاه الشكاكي للدلالة المعرفية للفلسفة، نجده إنما هو نفي لأحد مكوني دلالتها فقط، أي المكون المعرفي، حيث استبقى المكون الثاني والمتمثل في أنها فن ومنهج في الحياة، إذ يذهب الشكاك إلى أنه لكي يصل الإنسان إلى الحياة السعيدة، يجب عليه أن يرفض كل إمكان للمعرفة، وبهذا يصل إلى حالة الطمأنينة السلبية التي ينشدها»[(٣)] وهي الطمأنينة التي تجسدها حالة «الأثاراكسيا»، أي «الطمأنينة السلبية» الكاملة، التي تعلق الحكم المعرفي، وما يتصل به من شعور وفعل، تعليقا كاملا.

و يمكن الغشارة إلى أهم المحطات الشكية التي عرفها الفكر الفلسفي نذكر منها:

أ- بارمنيدس والشك في المعرفة الحسية:

تمحورت فلسفة «بارمندس» حول الفلسفة والعلم الطبيعي والذي ضمنها مؤلفه الذي قسمه إلى قسمين هما: في الحقيقة وفي الظن، وبهذا كانت المعرفة عنده نوعان: عقلية وهي ثابتة كاملة، وظنية وهي قائمة على العرف وظواهر الحواس.

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٢٣.

(٢) الطيب بو عزة، **في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة، - نقد التمركز الأوروبي** - ط١، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠١٢م، ص ٦٥.

(٣) عبد الرحمن بدوي، **خريف الفكر اليوناني**، ط٤، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٧٠م، ص ٦٩.

من بين الحقائق التي اعتمدها «**بارمندس**» هي «أنّ الوجود موجود، ولا يمكن ألا يكون موجودا»، أما اللاّوجود فلا يدرك إذ أنه مستحيل ولا يتحقق أبدا، فلم يبق غير طريق واحد هو أن نضع الوجود، وأن نقول أنه موجود، يقين عقلي آمن به «**بارمندس**» ثم ما لبث إلى الشك والظن في الحواس، هذه الأخيرة التي اتخذت منها السفسطائية موقفا بنت من خلاله آراءها الفلسفية وهذا في مايلي:

ب- السفسطائية وضياع الحقيقة:

السفسطائية تعني المعلم، وهي حركة عرفها الفكر اليوناني من جماعة حملت على عاتقها تعليم الشباب الأثيني فن الخطابة والجدل مع الآخر، لذا يمكن القول أنّ السفسطائية لم يكن أبدا همها في البحث عن الحقيقة وتقصيها و إنما اهتموا بالبحث عن وسائل الإقناع والتأثير الخطابي مقابل قدر من المال.

كان «**بروتاغوراس**»» و«**جورجياس**» من أبرز رجالها؛ فأما الأوّل فقد كان صريحا منذ أن نشر كتابا أسماه الحقيقة وردت في رأسه عبارة: «لا أستطيع أن أعلم إن كان الآلهة موجودين أم غير موجودين، فإنّ أمورا كثيرة تحول بيني وبين هذا العلم، أخصها غموض المسألة وقصر الحياة»، فاتهم بالإلحاد، وحكم عليه بالإعدام، وأحرقت كتبه علنا. ففر هاربا، ومات غرقا أثناء فراره[١].

ومن نفس المصدر وضع «**بروتاغوراس**»» مقولته الشهيرة في أنّ الإنسان مقياس الأشياء جميعا، هو مقياس وجود ما يوجد منها، ومقياس لا وجود ما لا يوجد، القضية التي شرحها فيما بعد «**أفلاطون**» مبينا ما يرجوه «**بروثاغوراس**» من مقولته هذه والتي جمع فيها بين رأي «**هيراقليطس**» في التغير المتصل وقول «**ديمقريطس**» في أنّ الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة، فيخرج منها «أنّ الأشياء هي بالنسبة إليّ على ما تبدو لي، وهي بالنسبة إليك على ما تبدو لك، وأنت إنسان وأنا إنسان»، فالمقصود بالإنسان هنا الفرد من حيث هو كذلك لا الماهية النوعية، ولما كان الأفراد يختلفون سنا وتكوينا وشعورا، كانت الأشياء تختلف وتتغير، فكان بذلك تغير الأحاسيس وتعارضها[٢].

(١) يوسف كرم، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، ص ٤٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٧.

أما «**جورجياس**» فلقد أوضح لنا مبدأه الشكي في مؤلفه «في اللاّوجود»، حيث تتلخص أقواله في قضايا ثلاث، هي:

- لا يوجد شيء
- إذا كان هناك شيء فالإنسان قاصر عن إدراكه
- إذا فرضنا أنّ إنسانا أدركه فلن يستطيع أن يبلغه لغيره من الناس

فمعرفة وجود الأشياء عند «**جورجياس**» يجب أن يكون بين تصورنا وبين الأشياء علاقة ضرورية هي علاقة المعلوم بالعلم، أي أن يكون الفكر مطابقا للوجود، وأن يوجد الوجود على ما نتصوره، وهذا باطل، لأنّه في الكثير من الأحيان ما تخدعنا حواسنا، كما أنه في الكثير من الحالات ما تركب المخيلة صورا لا حقيقة لها[1]، ومنه فلا وجود لحقائق ولا ليقين معرفي يمكن القول به أو البحث عنه.

ج- الشك بين الخلقي والابستيمي:

يتابع المنحى الشكي كل من **بيرون (٣٦٥ - ٢٧٥) ق م** صاحب مذهب اللاأدرية المنكر للعلم واليقين أحد أتباع «**ديمقريطس**»، والذي لم يصل إلينا منه شيء عدا ما كتبه وأوصله تلامذته إلينا في أنه ذهب إلى أنّ كل قضية فهي تحتمل قولين، ويمكن إيجابها وسلبها بقوة متعادلة، فالحكمة في العدول عن الإيجاب والسلب، والامتناع عن الجدل، والوقوف عند الظواهر، فإنّ الشك لا يتناول الظواهر وهي بينة في النفس، ولكنه يتناول الأشياء في أنفسها، والشاك يقر بأنّ الشيء الفلاني يبدو له أبيض، وأنّ العسل يبدو لذوقه حلوا، وأنّ النار تحرق، ولكنه يمتنع عن الحكم بأنّ الشيء أبيض، وأنّ العسل حلو، وأنّ من طبيعة النار أن تحرق، وعلى ذلك ليس هناك خير أو شر بالذات، وكل ما هنالك عرف واصطلاح يسير عليه الناس، الشيء الواحد تارة يكون خيرا وتارة يكون شرا، وكل شيء فهو زائل، الخير والشر على السواء. فالناس يخطئون إذ يتوهمون سعادتهم وشقاءهم في الأشياء نفسها ويعتمدون عليها كأنها باقية، أما إذا أقتنعوا بأنّ الأشياء زائلة والأحوال متقلبة، انتفى تصديقهم بها، وانعدم ميلهم إليها أو جزعهم منها، ونعموا بالطمأنينة أي السعادة مهما تكن الظروف، وبهذا يمكن القول أنّ الشك عند بيرون

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٨.

قد كان شكا خلقيا أكثر منه مطقيا، إذ كان موجها لقيمة الأشياء ومدى إمكانية الإنسان في تحقيق سعادته لا شكا في قيمة المعرفة[١].

ثم ما كان مع **أرقاسيلاس (٣١٦ - ٢٤١) ق.م**، وهو واحد من رجال المدرسة الأفلاطونية والتي حوّلها بآرائه إلى الأكاديمية الجديدة حيث استطاع أن يزعزع من ثقة أهل اليقين المعرفي - «**زينون الإيلي**» وأتباعه وهاجم «الفكرة الحقيقية»، فأنكر أن يقع التصديق على فكرة، وهو إنما يقع على قضية، كما أنه لدينا تصورات قوية واضحة ليست حادثة عن شيء كما يتبين من أخطاء الحواس وخيالات المنام وأوهام السكر والجنون، فليس لدينا وسيلة للتمييز بين الفكرة الحقيقية وغير الحقيقية، وليس هناك علامة للحقيقة[٢].

و جملة القول في هذا أنها مواقف وآراء لا تقول بوجود حقائق ولا تعترف بها، الأمر الذي تصدى له أصحاب ومناصري اليقين المعرفي، وهذا في ما يلي:

اليقين كمنهج للفكر الفلسفي

اليقين كما ورد في التعريفات «**لمحمد الشريف الجرجاني**» هو: «العلم الذي لا شك معه، وفي الاصطلاح اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا بكذا، مطابقا للواقع غير ممكن الزوال، وقيل هو طمأنينة القلب على حقيقة الشيء»[٣].

وشمل اليقين في الفكر الفلسفي وتحديدا في الفلسفة المدرسية ثلاث نقاط أساسية هي:

- **اليقين الواقعي:** أو الطبيعي وهو الاعتقاد الجازم المتعلق بموضوعات التجربة.
- **اليقين العلمي:** هو الاعتقاد الجازم المتعلق بإدراك الحقائق السببية، والحقائق النظرية، فإذا كانت الحقائق بديهية كالأوليات مثلا كان اليقين بها يقينا حدسيا مباشرا، و إذا كانت نظرية كالحقائق التي يكشف عنها بالبرهان كان اليقين بها يقينا استدلاليا غير مباشر.

---

(١) يوسف كرم، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، طبعة جديدة، دار القلم، بيروت، (د - ت)، ص ٢٣٥.
(٢) سنرى بأنّ الحجج التي قال بها أرقاسيلاس هي نفسها المعتمدة في الفكر الحديث سواء أكان في الفكر الغربي أم الإسلامي.
(٣) الجرجاني، **التعريفات**، ص ٣٨٠.

- **اليقين الأخلاقي**: وهو اقتناع المرء بأنه يستطيع أن يتخذ إزاء ما يعتقد حقيته قرارا عمليا موافقا، وإن كان هذا الاقتناع لا يتنافى مع إمكان الخطأ.

ومعنى ذلك أنّ للقين جانبين أحدهما ذاتي Subjectif، وهو اليقين الذي لا يستطيع صاحبه أن ينقله إلى غيره، والمثال منه شعور المرء بما في نفسه(١)؛ والآخر موضوعي Objectif وهو اليقين المستند إلى أسباب تفرض نفسها على جميع العقول، والمثال منه اليقين العلمي واليقين المنطقي(٢).

وكان هذا منطلق العديد من الفلاسفة الذين نحوا منحى مغايرا تماما لما أتى به فلاسفة الشك، ونظروا إلى الأمور من بابه الواقعي والعقلاني، ضاربين بكل ما يعترض نهج اليقين المعرفي، فاعترفوا بوجود حقائق كما وضعوا لها أسسا ومبادئ، وهذا ما سنحلله في ما يلي:

أ- ديمقريطس:

كان ديمقريطس يناهض ما كان من السفسطائية وغيرها من هدم للحقائق المعرفية، وتذكر الكتب المنطقية أنّ ديمقريطس كان أول من أسس لنسق منطقي في اليونان القديمة، إذ كتب رسالة خاصة في المنطق أو القانون تقع في ثلاثة كتب، كما اعترف أرسطو بأنه كان أوّل من أقام فلسفته بواسطة التصورات والتعريفات المنطقية حيث ذهب إلى أنّ معايير الحقيقة هي:

- الإحساس الكامل المحكم، ويقصد به الإدراك الحسي الذي يمثل التحقيق العملي.
- العقل الكامل وهو الذهن المزود بالمنهج العلمي والمسترشد بمبادئ البحث الصحيحة.
- الممارسة الحسية وهي التحقق من الأفكار

خطوات قال بها وحددها بغية تجاوز ما كان من هدم وضياع للحقيقة، مبرهنا عن وجودها وعن إمكانية الوصول إليها إذا ما اعتد بالعقل وبالتجربة.

ب- سقراط:

لم يرض سقراط بما كان من ممارسات سفسطائية في الحقل المعرفي الفلسفي، فتجاوز ما كان من آراء فلاسفة الشك وعمد إلى القول بوجود حقائق كما عمد إلى لفت انتباه الآخر إليها، مستخرجا إياها من مكنوناتها، فوضع بذلك منهجه القائم على التهكم - السؤال مع تصنع

(١) هذا ما سنحلله لاحقا بما كان مع أبي حامد الغزالي ورينيه ديكارت.
(٢) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ج٢، ص ٥٨٨.

الجهل -، والتوليد - استخراج الحق من النفس -، ففي الأولى «كان يتصنع الجهل، ويتظاهر بتسليم أقوال محدثيه، ثم يلقي الأسئلة ويعرض الشكوك، شأن من يطلب العلم والاستفادة، بحيث ينتقل من أقوالهم إلى أقوال لازمة منها، ولكنهم لا يسلمونها فيوقعهم في التناقض ويحملهم على الإقرار بالجهل، وكان غرض سقراط من هذه الخطوة المبدئية تخليص العقول من ما عمدت السفسطائية على نشره، وإعداد الذوات لتقبل الحقائق، لينتقل إلى الخطوة الثانية، فيساعد محدثيه بالأسئلة والاعتراضات مرتبة ترتيبا منطقيا على الوصول إلى الحقيقة التي أقروا أنهم يجهلونها، فيصلون بذلك إليها وهم لا يشعرون، كما أنه كان يرى أنّ لكل شيء طبيعة أو ماهية هي حقيقته يكشفها العقل وراء الأعراض المحسوسة، ويعبر عنها بالحد، وأنّ غاية العلم إدراك الماهيات، أي تكوين معان تامة الحد، فكان يستعين بالاستقراء ويندرج من الجزئيات إلى الماهية المشتركة بينها، وكان يجتهد في حد الألفاظ والمعاني حدا جامعا مانعا، ويصنف الأشياء في أجناس وأنواع، ليمتنع الخلط بينها، فكان بذلك أوّل من طلب الحد الكلي طلبا مطردا وتوصل إليه بالاستقراء[(١)].

ج- أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧) ق.م:

إنّ المستقرئ لفلسفة **أفلاطون** يجد أنه هو الآخر قد دحض زمرة الشكاك بما أوتي من فكر وعلم ثاقب، وما هو متعارف عنه أنه كان أول من أتى بفلسفة جامعة ونظما شاملا لنواحي الفكر وجوانب الحقيقة، لتشمل فلسفته النقاط التالية:

- نظرية المعرفة التي يكمل بها ما بدأه سقراط من تنفيذ مذهب السفسطائية.
- نظرية المثل التي تبحث في الحقيقة المطلقة.
- البحث في الطبيعة من حيث هي مادة تملأ المكان والزمان
- والأخلاق التي تشمل المبادئ وواجبات الإنسان من حيث أنه فرد ومن حيث أنه عضو في جماعة[(٢)].

---

(١) يوسف كرم، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، ص ص ٥٢ - ٥٣.

(٢) أحمد أمين، زكي نجيب محمود، **قصة الفلسفة اليونانية**، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥م، ص ص ١٤٦ - ١٤٧/ أ- ه آرمسترونغ، **مدخل إلى الفلسفة القديمة**، تر: سعيد الغانمي، ط١، المركز الثقافي العربي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٩م.

تابع أفلاطون خطى أستاذه سقراط في تفنيد ما ذهبت إليه السفسطائية من هدم للحقائق المعرفية وعدم الاعتراف بها، وخلص إلى أنّ العلم لا يمكن أن تأتي به الحواس وحدها وأنّ العقل هو الآداة التي نستعين بها في الوصول إلى المعرفة مهما كان نوعها، فالمدركات العقلية وحدها التي يعبر عنها بالتعاريف، ليتابع مشواره واجتهاده في التقصي عن الحقائق ويصل بعدها إلى الحقيقة المطلقة والمتمثلة في عالم المثل الذي يضم كلياتا ومثلا لكل ما يحويه واقعنا المزيف.

د- أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢) ق.م:

أما «**أرسطو**» فيمكن القول أنه قد استطاع أن يضع لما كان من هدم للحقيقة ولليقين المعرفي الذي كان سائدا في عصره، وهذا حين قال بالتحليلات، أي تحليل العلم إلى عناصره، وقد جمعت مؤلفاته المنطقية ووضعت تحت عنوان شامل هو - الأورغانون - أو الآلة العقلية التي يكون بمقدورها الوصول إلى اليقين المعرفي، فكان من مباحث الأورغانون ما يلي:

- **المقولات - قاطغورياس -:** ومعناها المحمولات.
- **العبارة - باري أرمنياس -:** معناها الصوت، والمراد بها الصوت الدال وهنا يتناول أرسطو الدلالة وأنواعها، وأنواع الألفاظ، والقضية وأنواعها.
- **التحليلات الأولى والثانية - أنالوطيقا -:** أما التحليلات الأولى فنقصد بها القياس وأما التحليلات الثانية فيعرض فيها إلى البرهان.
- **المواضع الجدلية - الطوبيقا -:** يوضح فيها أرسطو معنى الجدل ويذكر فيها مواد الأقيسة الجدلية وهي المقدمات المشهورة والمسلمة كما يذكر المواضع التي تُستخدم فيها هذه الأقيسة
- **نقض الأغاليط - سفسطيقا -:** يبين فيها معنى الأغاليط وأنواعها، وهي الأخطاء التي ترجع إلى إبهام في اللّغة، وغموض في الحدود، أو إلى عدم مراعات قواعد المنطق، وهي الأغاليط المادية، التي ترجع إلى مادة القياس وقواعد إنتاجه.

ويمكن اعتبار أنّ المنطق الأرسطي بمثابة المنهج الذي أسس له لبلوغ اليقين المعرفي، فأرسطو أيقن بوجود حقائق معرفية كما عمد على وضع المنهج الموصل لها.

وتجدر الإشارة إلى أننا لسنا بصدد سرد لفلسفات الأسطون الثلاثي للفكر اليوناني، وإنما

أشرنا إلى أنه يترأس فلاسفة اليقين القائلين بوجود حقائق قائمة بذاتها في هذا الوجود وعلى العقل الإنساني أن يجتهد في البحث عنها وهذا بانتقاء أدوات وآليات عقلية ومنطقية تخول له إمكانية الوصول إليها.

من الشك إلى اليقين

لم تكن حالات الشك التي اعترضت العقل البشري هادمة في كل حالاتها لليقين المعرفي ناكرة لوجود حقائق في هذا العالم، وإنما كانت هناك حالات امتاز بها الفكر الإنساني وكان الشك فيها منطلقا لتأسيس اليقين المعرفي، وكان هذا بارزا ظاهرا في الفكر الإسلامي والفكر الغربي على التوالي وتفصيل هذا في ما يلي:

أ- أبوحامد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١)م:

كان «**أبو حامد الغزالي**» كالسيف المسلول على الفكر الفلسفي، ولقد تصدى له بالحجة والبرهان العقليين والمنطقيين، مبينا تهافت الفلاسفة وأباطيلهم في مسائل وقضايا عدة اعتد بها الفكر الفلسفي، ودون أن نخوض في ما ذهب إليه لأن المجال لا يتسع لذلك، يمكن القول أنه قد كان من بين الذين تفلسفوا بشكل خالص، وعاشوا الفكرة الفلسفية بكل صفاء وعمق، ونريد بهذا أنّ أفكارهم الفلسفية قد كانت من تجربة عايشوها فعلا وانبثقت من عمق كيانهم ووجدانهم.

إنّ المتأمل في ما خطه «**أبو حامد الغزالي**» في «المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال»، يجد كيف أنه يصف حالته النفسية ومعاناته التي دامت عشر سنوات وهو يبحث عن الحقيقة وعن اليقين المعرفي، فأوّل ما كان من حالات الشك التي انتابته كانت مع بداية تدبره للقضايا الفلسفية وما إن تفحص بما كان منهم وحلّله في مؤلفه مقاصد الفلاسفة حتى رد عليهم في مؤلفه «تهافت الفلاسفة»

ابتدأ المنقذ وهو يصف كيف كان جادا في تحصيل العلوم، وهذا واضح في ماخطه من سطور قائلا: «ولم أزل في عنفوان شبابي، منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد آنف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم في كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة،

وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع»[١]

ويواصل وصف طبيعته التواقة في تقصي الحقائق: «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة، على قرب عهد سن الصبا، إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام»[٢].

من هنا دعا الغزالي إلى تجاوز التقليد والبحث عن الحقائق من دون تلقي أو اجترار وانما يكون منطلقا راديكاليا، منطلقا أقدم عليه الغزالي وهو يبحث عن النهج الأنسب الصادق في تحصيل اليقين المعرفي، وما لبث أن انتقل من محطة إلى أخرى ليتبين عجز كل محطة في جانب من جوانبها، محطات يمكن اختزالها في النقاط التالية:

الشك في الحواس:

تأمل الغزالي الحواس، فرأى أنها لامجال للثقة بها، كيف وأقواها حاسة البصر، واعتمد الحجج التالية:

- تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك، فنحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة، بعد ساعة تعرف أنه متحرك.
- تنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار الدينار، ثم يتبين بعدها وبالأدلة الهندسية أنه أكبر من الأرض في المقدار.

من هنا رأى الغزالي أنّ الحواس يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، وبالمقابل يكذبه حاكم العقل، من هنا بطلت الثقة بالمحسوسات، وانتقل إلى العقل واضعا ثقته به إلا أنه وبعد تفكر وتدبر ما لبث أن يفقد ثقته في العقل أيضا[٣].

---

(١) أبو حامد الغزالي، **المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال**، تحقيق: جميل صليبا، كامل عياد، (د - ط)، دار الأندلس، بيروت، (د - ت)، ص ٨١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٤.

الشك في المدركات العقلية:

بعد أن أبطل العقل الثقة بالحواس، واطمأن الغزالي إليه، وجد نفسه يتساءل عما إن كان هناك من يبطل الثقة في العقل، فكما أنّ هذا الأخير أبطل ما كان من معارف من قبل الحواس وما تزودنا به من العالم الخارجي فأكيد أنّ هناك من يبطل ما يزودنا به العقل من معارف وهذا ما أقر به ما يلي:

- حالات النوم فغالبا ما يوحي لنا العقل بأنها حقيقة، ونعتقد في الأمر ثباتا واستقرارا، ولا نشك أبدا في ذلك، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع مخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل، فيمكن إذن وهذا ليس ببعيد أن تطرأ حالة تكون نسبتها إلى اليقظة، كنسبة يقظتنا إلى المنام. فتكون اليقظة نوما، وبهذا فقد الغزالي الثقة بما يكون من مدرك عقلي(١).

الشك في العلوم والمعارف التي كانت سائدة في عصره:

من الآليات المعرفية الذاتية التي لم يطمئن إليها الغزالي، تابع يتقصى ما أتت به العلوم التي كانت سائدة في عصره، فصنف طالبي العلم إلى:

- المتكلمة.
- الباطنية.
- الفلاسفة.

فأما علم الكلام وبعد أن تعقله، وطالع كتب المحققين فيه، رأى بأنه علما وافيا بمقصودهم غير واف بمقصوده، لأنها كانت تدور حول حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشوش أهل البدعة، ولم تكن مباحثه لتشفي غليل البحث الذي كان يثقل كاها الغزالي، لينتقل إلى الفلسفة، فوجدهم أصنافا، وعلومهم أقساما، كما اتهمه بالكفر والإلحاد، كما كان بين القدماء منهم وبين الأواخر والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه، ليتابع الغزالي مبرهنا بالحجة والبرهنة العقلية والمنطقية عما كان من زيف وأباطيل في الفلسفة.

ينتقل الغزالي بعدها إلى الباطنية فبدأ يبحر في فكرهم ومقالاتهم، ولم يجد فيها سوى

(١) المرجع نفسه، ص ٨٥.

ضلالات وبدع لم تجد بعد من يتصدى لها ويكتشف أمرها لذا بلغت ما بلغته من انتشار وشهرة لآرائها[١]

ليواصل الغزالي تفحص ما كان من الطريق الصوفي ليجد فيه أخيرا ضالته فكيف ذلك؟

اليقين عند الغزالي:

حالات من الشك انتابت الغزالي، شك في الحواس الظاهرة والباطنة شك أيضا في مصداقية العلوم التي كانت سائدة في عصره، فمنها من كان غير واف بمقصوده، ومنها ما كان مفعما بالأباطيل والبدع التي تشوه الحقيقة وتنظر إلى الأمور على غير حقيقتها، ليتأمل في المحطة الأخيرة في ما كان من قبل المتصوفة، فرأى بأنهم أرباب أحوال، لا أصحاب أقوال، ثم يحلل الغزالي كيف ارتضى هذا المنهج ووجد ضالته فيه، فانغمس الغزالي في الحديث عن المكاشفات والمشاهدات دون أن ينزلق مع ما كان من مذهب الحلول والاتحاد، ليهتدي الغزالي إلى النهج المؤدي إلى اليقين المعرفي وهو نهج أقرب إلى الصوفية، إنه نهج حدسي كشفي، تقذف الحقائق في القلب قذفا، منزلة لا يبلغها العوام وإنما هي للخواص من بني الذوات الإنسانية الذين صقلت أرواحهم وحفوا بمكارم الأخلاق وعلو الآداب والسلوك.

هذا ما كان في الفكر الإسلامي أما في الفكر الغربي فأنسب من يمثل لنا نموذج الانتقال من الشك إلى اليقين هو الفيلسوف والرياضي الفرنسي رينيه ديكارت وتفصيل هذا في مايلي:

٢- رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠)م:

يلقب ديكارت بأبي الفلسفة الحديثة، وبأبي العقلانية أيضا وإن كان هذا يدل على شيء فإنما يدل على مدى تأثيره في الفكر الفلسفي، وعلى قدرته التي استطاع بها أن يغير من منحى التفكير الذي كان سائدا لحقب من الزمن إلى وقته، إذ أتى بفلسفة جديدة مغايرة تماما للفلسفات السابقة عنه، والتي نقصد بها الفلسفة المدرسية.

كانت الفلسفة الديكارتية في مجملها ثورة على المنطق الأرسطي وعلى العلم الطبيعي، فضلا عن انتقاده للفلسفة المسيحية التي كانت سائدة في عصره، وترتكز الفلسفة الديكارتية على مبدأ الكوجيتو الذي قال به والذي قلب الفكر الغربي رأسا على عقب، مبدأ لم يكن

(١) المرجع نفسه، ص ص ١١٧ - ١٢٩.

ليصل إليه إلا بعد حالات رهيبة من الشك أوصلته فيما بعد إلى يقينيات كبرى ثلاث، فكيف كان ذلك؟

الشك عند ديكارت:

- كان ديكارت أكثر ميلا للعلوم الرياضية لما وجد فيها من دقيق الفكر وصدق قضاياه[1]، بخلاف الفلسفة التي وجد فيها آراءا متضاربة متناقضة في القضية الواحدة، الأمر الذي دفع به إلى الاهتمام والابداع في الحقل المعرفي الرياضي حيث كان مؤسس ومكتشف الهندسة التحليلية، ثم ما لبث أن أدخل المنهج الرياضي في فكره الفلسفي، لا لشيء إلا ليضفي عليه نسبة من اليقين المعرفي، إذ كان يرى أنه ما من علم إذا ما أراد أن يبلغ درجة اليقين، فما عليه إلا أن يعتمد المنهج الرياضي.

بدأ ديكارت يشك في قيمة المعرفة منذ أن كان على مقاعد الدراسة في مدرسة لافلش، وتجدر الإشارة إلى أنه قد تزامن مذهب اللاأدرية الذي كان يتزعمه ميشال دي مونتاني الذي اشتهر باللاأدرية المطلق.

تمحور الشك الديكارتي في نقاط ثلاث هي:

الشك في الحواس:

شك ديكارت في المعرفة الآتية عن طريق الحواس الظاهرة، ورفض أن تكون هذه الحواس مصدرا للمعرفة، لأنه لاحظ أنّ الحواس تخدع في بعض الأحيان، فهي لا تنقل لنا بأمانة كل ما هو عليه الشيء بتمامه، ومن الحكمة ألا نثق البتة بالذي يخدعنا حتى ولو مرة واحدة، ومن الحجج التي اعتمد عليها:

- مريض اليرقان، وهو مرض يصيب الكبد - الذي تخدعه عيناه دائما، فيرى كل شيء بلون أصفر والحقيقة غير التي أمدته به عيناه.
- ننظر إلى الشمس فنراها في غاية الصغر، في حين أنها أكبر من الأرض بأضعاف.

---

(١) رينيه ديكارت، **مقال عن المنهج لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم**، تر: محمود محمد الخضري، المطبعة السلفية، القاهرة، ص ص ١٢ - ١٣.

الشك في الحواس الباطنة:

وهي أن نشك في المعرفة الحاصلة لنا من طريق الأحلام، لأننا كثيرا ما نؤمن بصواب ما نراه في الحلم ونعتقد أنه حقيقة، ولا شك في هذا ابدا، فإن استيقظنا تبددت تلك الحقيقة التي كنا نعتقد أنها كذلك وأيقنا أنّ ما رأيناه ونراه في الحلم ليس من الحقيقة في شيء، إذن يمكن أن نستنتج من هذا أنّ الكثير من الصور والأفكار التي ترد على أذهاننا أثناء النوم في الحلم يكذبها عالم اليقظة بالرغم من أننا نعتقد حينذاك أنها حقيقة.

ومنه إلى الشك والتساؤل عن قيمة المعرفة الحاصلة لنا عن طريق اليقظة، وفيما إذا كانت هذه المعرفة ليست خيالات وأوهام، إزاء المعرفة الحاصلة لنا من طريق الأحلام.

الشك في الوجود الذاتي والخارجي:

- طالت حالة الشك الديكارتي لتمس وجود ذاته، وتمس الوجود الخارجي لها أيضا، وهذا عندما شك في الوسائل والأدوات المعرفية التي تبين خداعها وقصرها وعدم جدواها في عملية الإدراك(١)، لذا أصبح الوجود وكل الوجود سواء أكان ماديا أو معنويا عبارة عن وهم وخيال كما أصبح الاعتقاد به باطل من أساسه، فما الحل؟ هل يضل ديكارت أبو العقلانية يعيش في أباطيل وأوهام أم أنه يحد من هذه الرؤية.

اليقين الديكارتي - الكوجتو - Cojito:

كان على ديكارت أن يوظف عقلانيته للحد من هذه الحالة التي كان يعيشها والتي عمدت على هدم أي أساس للحقيقة، مبادئ تصطدم مع عقلانيته المصرة على كشف الحجب عن كل ما يشوب أو يعتري الحقائق المعرفية بيقين داخلي تساءل ديكارت عن هذا المبدأ الذي يدفعه للشك في كل شيئ فحدده أو افترض أنه شيطان خبيث - وهنا لا نعلم لماذا الشك الديكارتي لم يوظف في وجود هذا المبدأ -، فلاحظ أنه يشك ويشك ويشك في كل شيء، ويدفعه إلى شك دائم ومطلق حتى أنه شك في أنه موجود، ليصطدم هذا المبدأ بأرضية صلبة وهو الوجود الذاتي لديكارت ككائن يشك، ذلك أنه لاحظ بأنه كلما أمعن النظر في الشك، ازداد يقينا بأنه موجود يشك، بأنه كائن موجود يفكر ويشك، وهذا اليقين الأولي الذي توصل إليه ديكارت، وهو

---

(١) تفصيل هذا في رينيه ديكارت، **التأملات في الفلسفة الأولى**، تر: عثمان أمين، تصدير مصطفى لبيب، (د - ط)، المركز القومي، القاهرة، ٢٠٠٩م، التأمل الأوّل في الأشياء التي يمكن أن توضع موضع الشك، ص ٦٣.

يقين وجوده ككائن يشك و يفكر، وهذا حين تساءل عن ماهية الشيء الذي يشك، وهنا قال ديكارت مقولته المشهورة:

أنا أفكر إذن أنا موجود

أنا أشك إذن أنا موجود

- و بالتعبير المنطقي: أنا أشك إذن أنا أفكر، أنا أفكر إذن أنا موجود(١).

كان هذا اليقين الأولى الذي توصل إليه ديكارت وهو يقين وجود ذاته ككائن يشك، يفكر وبالتالي موجود، وهذا ما يعرف بالكوجيتو - Cojito - الذي استطاع ديكارت من خلاله أن يحد من معانات شكه في الأمور كلها وشرع في تأسيس فكره الفلسفي على الكوجيتو ومنه استنبط يقينيات كبرى أخرى ألا وهي يقين وجود اللامتناهي - الكامل و يقين وجود العالم الخارجي، معتمدا في ذلك برهنة عقلية رياضية.

خاتمة

لم نهدف بدراستنا هذه سرد ما كان في الفكر الفلسفي من آراء ومواقف منذ أزمنته القديمة إلى يومنا هذا، و إنما كانت تنبيها للمنهج المعتمد في تقصي الحقائق والبحث عنها، وبالرغم ما نجده من تعدد في المنهج الفلسفي، إلا أنه وبعد دراستنا هذه خلصنا إلى أنه يمكن اختزالها في مناهج ثلاث، منهج الشك، منهج اليقين، ومنهج يزاوج بين كليها، على أن الأول يفلسف الحياة و ينظر إليها على أنها بحث في نمط العيش الإنساني، فكانت بذلك أراءه ومواقفه عملية أدت إلى عدم الاعتراف وجود حقائق في هذا الوجود وأنّ البحث عنها ضرب من العبث، رأي قد كان سائدا في أزمنة ما قبل الميلاد لنجده الآن يكرر نفسه على ألسنة فلاسفة ما بعد الحداثة وهم يرفضون تكبيل العقل والحد من إعماله بالوقوف على الأنساق الكبرى الذي عرفه العقل الإنساني عبر تاريخه الطويل، وموقف آخر يقول بوجود هذه الحقائق اتقاء الفوضى الفكرية واتقاء سقوط الأنظمة التي بها وحدها يسير العالم الخارجي، جاهدين انفسهم مجتهدين في البحث عن الآليات والأدوات الدقيقة والفعال للكشف عنها وبلوغها، وموقف آخر يزاوج بين هذا وذاك لينطلق وهو فاقدا لأي معيار يثبت أن هناك حقائق يزخر بها هذا العالم، وكل ما

(١) المرجع نفسه، التأمل الثاني - الكوجيتو - ص ٨٣.

هنالك ما هو إلا وهم وأباطيل، لكن سرعان ما يلتمس العقل ضالته وهذا سواء أكان في المنهج الحدسي والكشف كما وسبق وأن رأينا مع أبي حامد الغزالي في الفكر الإسلامي، أو في المنهج العقلي مع رينيه ديكارت في الفكر الغربي.

محاولات مست ولا تزال أفق الفكر الإنساني، مجتهدة في وضع واختيار المنهج الأنسب والفعال لبلوغ اليقين المعرفي، لتؤسس من خلاله نظريات في شتى العلوم والمعارف الإنسانية تتوارثها الأجيال فيما بينها لتدلو هي الأخرى بما تراه مناسبا لحركة الفكر الإنساني.

قائمة المصادر والمراجع

١- أبو حامد الغزالي، **المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال**، تحقيق: جميل صليبا، كامل عياد، (د - ط)، دار الأندلس، بيروت، (د - ت).

٢- أحمد أمين، زكي نجيب محمود، **قصة الفلسفة اليونانية**، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥م.

٣- أ - ه آرمسترونغ، **مدخل إلى الفلسفة القديمة**، تر: سعيد الغانمي، ط١، المركز الثقافي العربي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٩م.

٤- الطيب بو عزة، **في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة، - نقد التمركز الأوروبي** - ط١، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠١٢م.

٥- جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيوت، ١٩٨٢م.

٦- جينيفر مايكل هيكت، **تاريخ الشك**، تر: عماد شيحة، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤م.

٧- حنا أسعد فهمي، **تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن** ط١، المطبعة اليوسفية، مصر، ١٩٢١م.

٨- رينيه ديكارت، **التأملات في الفلسفة الأولى**، تر: عثمان أمين، تصدير مصطفى لبيب، (د - ط)، المركز القومي، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٩- رينيه ديكارت، **مقال عن المنهج لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم**، تر: محمود محمد الخضري، المطبعة السلفية، القاهرة.

١٠- عبد الرحمن بدوي، **خريف الفكر اليوناني**، ط٤، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٧٠م.

١١- محمد الشريف الجرجاني، **التعريفات**، طبعة جديدة، مكتة لبنان، لبنان، ١٩٨٥م.

١٢- محمود حمدي زقزوق، **تمهيد للفلسفة**، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م

١٣- مصطفى حسيبة، **المعجم الفلسفي**، ط١، دار أسامة، الأردن، ٢٠٠٩م.

١٤- يوسف كرم، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، طبعة جديدة، دار القلم، بيروت، (د - ت).